7 – مفهوم النوع الأدبي، الرواية التاريخيّة نموذجًا

بقلم: الباحثة نوره محمد فواز طرابيشي

استاذة محاضرة في كلية التربية/ جامعة حلب

ماجيستير لغة عربية/مختصة في نظرية الأدب / جامعة حلب

Noura Mohammad Fawaz Tarabishi

طالبة ماجستير بعنوان نظريّة الأدب جامعة حلب

Noura.tarabishi81@gmail.com

الملخّص

التاريخ وتوظيفه في السّرد الروائي كان ومازال من أهمّ الإشكاليّات المطروحة أدبيًّا ونقديًّا، ممّا جعل النّقد والدّارسون يعطونه اهتمامًا كبيرًا، لأنَّ التاريخ أصبح مادّة يغرف منها الأدباء في إبداعاتهم شكلًا ومضمونًا. وهذا ما يجعلنا نتساءل عن سرّ هذا التوظيف.

وقد عُدّت الرواية التاريخيّة نوعًا أدبيًّا مميزًا تجمع بين المتعة الأدبيّة والفائدة التعليميّة، فهي تساهم في إحياء أحداث الماضي، وتعريف الأجيال المعاصرة به، فعندما يقرأ

القارئ الرواية التاريخيّة يسافر عبر الزمن إلى الماضي، ويتعرّف على شخصيّات حقيقيّة من التاريخ، كما إنَّ الرواية التاريخيّة تقدّم صورة واقعيّة عن فترة تاريخيّة محدّدة، وتساعد القارئ على فهم تلك الفترة بوعي أعمق.

وتعالج الرواية التاريخيّة موضوعات اجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة مهمّة، فكثير من الروايات التاريخيّة تتناول موضوعات مثل الحريّة والعدالة والظّلم الاجتماعي، والصراع بين الخير والشر.

Summary:

The concept of the Literary Genre – the Historical Novel as a model

History and its function in the narrative was and still as one of the most prominent problematics presented literarily and critically, which led criticism and scholars to give it a great attention, since the history has become a material from which writers choose in their creations in form and content.

This drives us to wonder about the secret of this function.

The historical novel has been considered as a distinctive literary genre that combines literary pleasure and educational benefit, as it contributes in reviving the events of the past, and introducing contemporary generations thereto, so that when the reader reads the historical novel, he travels through time to the past, and gets to know real characters from history. The historical novel provides a realistic picture of a specific historical period, and helps the reader to understand that period with deeper awareness.

The historical novel deals with important social, political and cultural topics, as many historical novels deal with topics such as freedom, justice, social injustice, and the struggle between good and evil.

المقدّمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصَّلاة والسَّلام على سيّدنا محمّد النبيّ الأميّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتّبعه بإحسان إلى يوم الدّين.

التاريخ وتوظيفه في السّرد الروائيّ كان ومازال من أهمّ الإشكاليّات المطروحة أدبيًّا ونقديًّا، ممّا جعل النُّقَّاد والدّارسون يولّونه اهتمامًا كبيرًا، لأنّ التاريخ أصبح مادّة يغرف منها الأدباء في إبداعاتهم شكلًا ومضمونًا.

وهذا ما يجعلنا نتساءل عن سرّ هذا التوظيف.

وقد عُدّت الرواية التاريخيّة نوعًا أدبيًّا مميّزًا تجمع بين المتعة الأدبيّة والفائدة التعليميّة، فهي تساهم في إحياء أحداث الماضي، وتعريف الأجيال المعاصرة به، فعندما يقرأ القارئ الرواية التاريخيّة يسافر عبر الزّمن إلى الماضي، ويتعرّف على شخصيّات حقيقيّة من التاريخ، كما إنَّ الرواية التاريخيّة تقدّم صورة واقعيّة عن فترة تاريخيّة محدّدة، وتساعد القارئ على فهم تلك الفترة بوعي أعمق، وتعالج الرواية التاريخيّة موضوعات اجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة مهمّة، فكثير من الروايات التاريخيّة تتناول موضوعات مثل الحريّة والعدالة والظلم الاجتماعيّ، والصراع بين الخير والشر.

ويتضمّن هذا البحث مجموعة من الإشكاليّات التي يطمح هذا البحث الإجابة عنها وهي:

– ما هو النوع الأدبيّ، وما مفهوم نوع الرواية الأدبيّة؟

– ما العلاقة بين الرواية والتاريخ؟

– ما غاية الكتّاب من توظيف التاريخ في أعمالهم؟

– وهل استطاع التاريخ أن يكون وسيلة للكتّاب في تحقيق غاياتهم وبثّ أفكارهم في التغيير والبناء؟

هكذا تبلورت فكرة البحث بعنوانه (مفهوم النوع الأدبيّ، الرواية التاريخيّة نموذجًا).

قصد الإجابة عن الإشكاليّات المطروحة، ومحاولة للتعرّف على الرواية التاريخيّة التي نُسجت بخيوط أحداث الماضي وشخصيّاته.

وقد كانت الغاية الذي ينشدها البحث مرتكزة على دافعَيْن: ذاتي، وموضوعي.

أمّا الذاتي، فيرجع إلى إعجابي الشّديد بالتاريخ كون ذاكرة الأمّة وهويّتها، وهذه الهويّة ترتبط بجذورها نحو الماضي باتجاه الحاضر والمستقبل.

وأمّا الموضوعي، فيرجع إلى الكشف عن تأثير التاريخ على الرواية، وما قدّمته للسّرد الروائي جماليًّا وفكريًّا.

وقد اقتضت المادّة العلميّة أن يكون المنهج المعتمد هو المنهج الوصفي التحليلي لرصد الإشكاليّة وتتبع أبعادها.

ومن المتوقع أن تتكوّن عدّة نتائج في هذا البحث عن فهم أعمق للنوع الأدبي عمومًا ونوع الرواية التاريخيّة خاصّة، وفهم العلاقة بين الرواية والتاريخ، ومدى أثر هذه العلاقة على المتلقّي.

وأخيرًا، سيظلّ المجال خصبًا لمزيد من المحاولات الجادّة في هذا في هذا الميدان.

وأسأل الله عزّ وجل التّوفيق والسّداد.

مفهوم النوع الأدبي، الرواية التاريخيّة نموذجًا

إنّ الصّلة بين الأدب والتاريخ قديمة جدًا، ولها جذور عميقة، لعلّها ترتبط ببدايات ظهور الإنسان وتعلّمه سبل الحياة والكلام، ثمّ أصبح الكلام تاريخًا، على اعتبار أنَّ التّاريخ حكاية تروى، إمَّا كتابة وإمّا مشافهة، وفي أثناء رواية هذه الحكاية يدخل الخيال في أجزائها، فينسج من الكلام والخيال سردًا تاريخيًّا حتى تتكامل فيه صورة الحكاية، فيصبح بذلك التاريخ نوعًا أدبيًّا إبداعيًّا.

مفهوم النوع:

نشأ الأدبُ، وتعدّدتْ مفهوماته ونظريَّاته سواء بالنظر إلى الشّكل والمضمون فيه، وارتبط هذا التعدّد والتنوّع بالتحوّلات الفكريّة والفلسفيّة والاجتماعيّة، وواجه في كلّ مرحلة من مراحله أسئلته الخاصّة متجاوبًا مع مختلف التيارات والمذاهب والدّراسة الأدبيّة التي تتخذُّ الأدب موضوعًا لها، تتبع عدّة طرق في تناول هذا الموضوع، فقد تقتصر على دراسة الخصائص الأدبيّة العامّة كالزمان والمكان وتنوّع الشخصيّات وطبيعة الحدث،

وقد ترتبط هذه الخصائص بشكل يخصُّ نوعًا من الأنواع، في مجموعة نصوص أو عند كاتب معيّن، أو حتى ضِمن فترة زمنيّة محدّدة؛ فانتماء نصّ من النصوص إلى فئةٍ ما؛ يعني تحديد خصائصه الداخليّة وظروفه الثقافيّة والاجتماعيّة، وفي الوقت نفسه التزاماته إزاء المتلّقي.

وتعدُّ مسألة النّوع الأدبي قديمة قِدم الأدب نفسه، وربّما يشكّل جوهر الأدب ومحور اهتماماته، فنظريّة النّوع مِن أهم النظريّات التي تندرج ضمن نظريّة الأدب.

كما أنَّ ارتباط الأدب بالفكر يفسّر ولادة الأنواع الأدبيّة، ويشرح العلاقة بين تطوّرها وتطوّر المجتمع، فالأنواع في أصولها الأولى ليست إلا ردًّا على الحاجات الجماليّة للإنسان، وتجسيدًا لمواقفه في الحياة[1].

ومحاولة تصنيف الأدب ضمن أنواع أدبيّة محدّدة من أهمّ القضايا التي عنيت بها الدراسات الأدبيّة قديمًا وحديثًا، فنظريّة الأنواع الأدبيّة تخضع لمؤثّرات متعدّدة بحيث يُصبح من الصَّعب الوصول إلى أحكام نهائيّة بشأنها وذلك بحكم التطوّر الذي يخضع إليه الأدب باستمرار.

إذ تُعدُّ جهود أرسطو وأفلاطون ونظريّتهما في المحاكاة من أقدم المحاولات في مجال مفهوم نظريّة النوع الأدبي مرورًا بتاريخ النظريّة الأدبيّة من هوراس إلى لوكاش إلى باختين.

إذ ناقش أرسطو في هذه الجهود ثلاثة أنواع رئيسة للأدب (الملحميّ، والغنائيّ، والدراميّ) وأبَان خصائصها، فكلّ نوع يتميّز عن الآخر من حيث الماهيّة والقيمة، وأوجب الفصل بينهما، وذلك بحسب الأدب اليونانيّ، فالأنواع لديه صادرة عن محاكاة لأفعال الناس[2].

وقد ميّز أرسطو وأفلاطون الأنواع الرئيسة بحسب أسلوب المحاكاة والتمثيل وهي:

الصورة الغنائيّة: وهي شخصيّة الشّاعر نفسها، وتقوم على تعبير الشاعر تعبيرًا

(1) – ينظر: حسين، الصديق: مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيّة، 1425هـ–2004م، ص28.

(2) – ينظر: ويليك، رينيه، وآوستن وآرن: نظرية الأدب، تعريب: عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض السعودية، 1412هـ–1992م، ص315.

مباشرًا عند ردّ فعله إزاء الظواهر التي تحيط به.

الصورة الملحميّة: وفيها يتحدّث الشاعر بوصفه الراوي، ولكنّه في الوقت نفسه يجعل شخصيّاته تتحدّث بأسلوب مباشر، وتعبّر عن ذاتها وأحاسيسها وأفكارها، ولتجسيد الفكرة؛ يصوّر الشاعر الأماكن والشخصيّات من الداخل والخارج، وينتقل بالقارئ في الزمان والمكان، ويقدّم العبرة من الأحداث التي تعمل على تصوير تاريخًا كاملًا لحياة ذلك العصر، ومن هذه القيمة الفنيّة للملحمة ما جعل النقّاد يعتقدون بأنّ الرّواية هي ملحمة العصر الحديث.

الصورة الدراميّة: وهي توفيق بين الملحميّ والغنائيّ؛ إلا أنّها تتمتّع بوحدتها المتكاملة.

فالصور الثلاثة تتفاعل، وتتشابك، وتتداخل في بعض الأحيان داخل العمل الأدبي، ومن الصَّعب التفريق بينها؛ لأنّها في جوهرها تمثّل مواقف أساسيّة للأشكال الكتابيّة ورؤيا العالم عند كلّ حضارة، ففي الرّواية نجدُ عناصر غنائيّة ودراميّة، وفي الشعر نعثر على عناصر ملحميّة ودراميّة، وفي المسرحيّة نجدُ عناصر ملحميّة وغنائيّة[1].

والنوع الأدبي عند «أوستن وارين» و«رينيه ويليك» ليس مجرّد إسم، إذ إنّ القيمة الجماليّة الذي يشارك فيه العمل الأدبي تشكّل صفاته، والأنواع الأدبيّة يمكن أن ينظر إليها على أنّها ضرورات نظاميّة تلزم الكاتب من جهة، وكذلك يلزمها الكاتب بدوره[2].

كما أنّ «رينيه ويليك» يُصرّح في موضع آخر بعدم جدوى التمييز بين الأنواع، فيقول: «لا تحتلّ نظريّة النوع الأدبيّة مكان الصدارة في الدراسات الأدبيّة في هذا القرن والسبب واضح لذلك هو أنّ التميّز بين الأنواع الأدبيّة لم يعد ذا أهميّة في كتابات معظم كُتّاب عصرنا فالحدود بينها تُعْبَر باستمرار، والأنواع تُخلط أو تُمْزج، والقديم منها يُترك أو يحوّر وتخلق أنواع أدبيّة جديدة أخرى»[3].

إذن، فمناقشة مسألة نظريّة الأنواع الأدبيّة في الغرب مستمدّة من عناصر وقواعد خاصّة قائمة على المواقف الثلاث: ملحميّ، وغنائيّ، ودراميّ، وتصدر عن الظروف المختلفة التي تُنتج هذا الأدب في الزمان والمكان، وهي نظريّاتٌ تختلف عن نظريّات

(1) – ينظر: المرجع السابق، ص317–316.
(2) – ينظر: ويليك، رينيه، وآوستن وآرن: نظرية الأدب، ص312–313.
(3) – ويليك، رينيه: مفاهيم نقديّة، ترجمة: محمد عصفور، ص311.

آداب القوميّات الأخرى.

والأدب العربي واحدٌ من هذه الآداب ولا شكّ في أنّه يمتلك أيضًا أسُسًا وقواعد خاصّة به ترتبط برؤية وثقافة المجتمع العربي، والتي تختلف عن الغرب بأنّها تتبنّى قاعدة التصنيف الهرمي القائم على النظرة الذرائعيّة للأدب، والتي تعني التميّز بحسب محاور ثلاث: المرسل والرسالة والمتلقّي، وهذه القواعد ترتبط مباشرة بالوعي الفكري والجمالي المسيطر في العصر الذي نهتم به[1]، فالجذر المعرفيّ والحضاريّ للأنواع الأدبيّة عند العرب، القدامى منهم والمحدثون، يختلف عن نظيره عند الغربيّين. فالملحميّ والغنائيّ والدراميّ هي أشكال تعبيريّة تُبنى على رؤيا العالم، القائمة على المواقف الجوهريّة للإنسان كما ذكرنا سابقًا، ورؤية الكون والعالم عند العرب ليست هي ذاتها عند الغرب، كما أنّ هذا الجذر المعرفي عند العرب يتّفق في بعض الأسُس الشبيهة في الأدب الأوروبي أو في غيره من الآداب، إذ أنّ هذه الأسُس والقواعد ترتكز في كلّ من النظريَّتَيْن الغربيّة والعربيّة على اعتبارات اجتماعيّة وفكريّة وتاريخيّة وسياسيّة، تختلف من مجتمع إلى آخر[2].

ولعلّ الاهتمام بمسألة النوع الأدبي في الكتابات العربيّة النقديّة حديث نسبيًّا، إذ كان ومازالَ حتى الآن يثير كثيرًا من التساؤلات، والمناقشات التي تنتهي إلى نتائج مختلفة جدًّا، في أصل النوع وتعريفه وتطوره[3].

ويغدو النوع الأدبي مزيجًا معرفيًّا وفكريًّا وثقافيًّا، وتاريخيًّا، فالأنواع تختلف باختلاف الحضارات، ولكلّ حضارة أنواعها الخاصّة التي أثّرت فيها، وتختلف عن الحضارات الأخرى؛ فأيّ اختلاف للأدب بين الثقافات والحضارات يعني اختلاف مفهوم النوع، فيكون الأدبُ مسألة تتشابك وتتنوّع فيها عدّة علوم وظواهر ونظريّات، وهذا التنوّع والتشابك قديمًا قدم الأدب.

فقدرتنا على فهم أيّ نصّ من النصوص مرتبط بتلقّينا له من حيث نوعه، كيف نقرأه ... وماذا نتعلم منه؟ ...

(1) – ينظر: حسين، الصديق: مقدمة في نظرية الأدب، ص189.
(2) – ينظر: حسين، الصديق: مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي، ص32.
(3) – ينظر: المرجع السابق، ص191.

فهو منهج مرتبط بكيفيّة تلقّينا لهذا العمل الأدبي، قصيدة كان، أم مسرحيّة أم رواية.

إذن، فالنوع الأدبيّ هو ذلك التجسيد الفعليّ لمفهوم الأدب ووظيفته، فالأدب يبقى ضمن الإطار النظريّ حتى يُصنّف في أنواع واضحة المعالم متمايزة الخصائص، وتظلّ الأنواع الأدبيّة النواة التي تلتقي فيها القوى الفاعلة في الإنتاج الأدبيّ في أيّ مجتمع من المجتمعات من كاتب، وقارئ، وجملة عوامل تساهم جميعًا في تشكيله، فهو يُشكّلُ لوحة من ثقافة المجتمع وذاكرته.

مفهوم الرواية والرواية التاريخيّة:

والكلام على مفهوم النوع، يقودنا إلى السؤال عن مفهوم الرواية نوعًا أدبيًّا؟ ومتى ولدت الرواية، وما أنواعها؟ وغاياتها؟

تعدُّ الروايةُ من أهمّ الأنواع الأدبيّة، وواحدة من الأشكال القصصيّة العديدة، والتي قامت على تشخيص الواقع والذات بطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة، وقد استوعبت جميع الخطابات والأنواع الأدبيّة والفنيّة، حتى صارت عالمًا منفتحًا لكلّ الأشكال والأبنية الثقافيّة والجماليّة.

فالملحمة الغربيّة أصل الرواية تتناول قصّة تقليديّة تمزج بين الأسطورة والتاريخ والخيال، وأبطالها، من الآلهة والبشر الاستثنائيّين، وتهتمّ بالمغامرات بحثًا عن مَثَلٍ أعلى، و ما يميّز الرواية عن الملحمة هو أنّ الرواية تعالج واقع الحياة اليوميّة كما أنّ أبطالها هم من البشر العاديّين، وشخصيّاتها إنسانيّة تأخذ خواصها من المجتمع، فتمتزج بالواقع والمجتمع والتاريخ، وذلك بموضوعيّة وتخييل فنيّ وجماليّ حتّى عدت الرواية الملحمة البرجوازيّة؛ لارتباطها ببعض العناصر الملحميّة، فهي وريثة الملحمة، كما كانت سلاحًا لمناهضة كلّ أشكال القهر والحرمان والاستبداد الاجتماعي، وناشدت القيم الإنسانيّة كالحبّ والسّلام والحريّة، وأصبحت أكثر التصاقًا بالواقع، ثمّ بدأت الرواية في الغرب بشكلها الجديد غزوها أوروبا، وقد ساعد في انتشارها عوامل متعدّدة، منها اهتمام الشعوب الأوربيّة بمحو الأميّة في مطلع عصر النهضة، وازدهار فنّ الطّباعة الآليّة، وارتفاع المستوى الاقتصاديّ للطبقات المتوسّطة التي شكّلت جمهورًا عريضًا من القُرّاء، والتغيّرات الاجتماعيّة التي عرفتها المجتمعات الأوربيّة في ما بعد عصر النهضة.

وقد انتعشت الرواية في بداية القرن التاسع عشر على يد «بلزاك» و«تولستوي» و«إيميل زولا» و«ديستوفسكي» وآخرون.

وتُعدُّ رواية «دون كيشوت» للكاتب الإسباني «سيرفانتس»، أوّلَ نموذج للرواية الحديثة في الغرب، أبرَزَ فيها المثل العليا والفروسيّة التي أُغرِمَت بها الطبقات البرجوازيّة التي كانت تميل إلى النفعيّة. وبمرور العصور كانت تبرز إلى الوجود حقائق جديدة وتطوّرات فكريّةٌ متلاحقةٌ، فحرَصت الرواية على مواكبة هذه التطوّرات ووضعت نفسها في خدمتها كأداة للتعبير الفنّي المجسّد للحقائق المجرّدة إذ مثّلت ميلًا تقدميًّا، وثوريًّا، ومن ثمّ انتقلت إلى مرحلة الواقعيّة بكينونتها الاجتماعيّة وصراع الطبقات، ومنها كان التطوّر السّريع الذي طرأ على الأشكال الروائيّة.

وليس من العجيب في أواخر القرن العشرين، أن يعود الأدب إلى الرمزيّة والمثاليّة الموجودتَيْن في الأساطير القديمة والملاحم الموغِلَة في التاريخ الأدبيّ لكيّ يستلهم منها الأشكال التي تناسب مضامين العصر الحديث.

ولكن الذي يهمّ هو أن الفنَّ الروائيَّ استطاع أنْ يشكّل ركنًا هامًّا في الحضارة بتناقُضَاتِها التي تتراوح بين أعلى قِمَم العظمة وأدنى سُفوح التفاهة؛ كما استطاع هذا الفنُّ أيضًا أن يستوعب أنواعًا متعدّدة من الأدب وأنماطًا مختلفة من التطوّر الاجتماعيّ، بحيث جمع بين الفنّ الجميل بموضوعيّته وأصالته وبين التسجيل التاريخيّ والاجتماعيّ بفائدته الجمّة للدارسين والباحثين.

فالرواية إذن، نصّ يدمج كلّ النصوص، وبنية فنيّة تبدو فيها كلّ الأنواع الأدبيّة، والأنماط الكثيرة كالمقال والخطابات الشخصيّة والمذكّرات والدراسات التاريخيّة والوثائق الدينيّة والمنشورات الثوريّة وأدب الرحلات، وأنماط أخرى من الكتابات النثريّة الحديثة[1].

أمّا في الأدب العربي الحديث فقد تأثّر الأدباء العرب بالرواية، فهي ملحمة العصر الحديث ونتاج النهضة الفكريّة الحديثة، إذ شهد هذا الأدب عدّة تحوّلات أدبيّة وفكريّة مهمّة مع بداية القرن العشرين، على صعيد بناء أنواعه الجماليّة والفنيّة والموضوعيّة، و ذلك عن طريق استنبات أنواع أدبيّة غربيّة جديدة في تربة ثقافيّة عربيّة مثل القصّة

(1) – ينظر: راغب، نبيل: فنون الأدب العالمي، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان، الجيزة، مصر، 1996م، ص183–171.

والروايّة والمسرحيّة، وتشكّلت الرواية العربيّة نتيجة الاحتكاك الذي حصل بين المجتمع العربي والثقافة الغربيّة، وقد نشأ هذا التأثّر عن طريق الترجمة، فالرواية الحديثة اليوم، هي النوع الأدبي الذي يُحدّد عمره بداية القرن العشرين تقريبًا، فلم تظهر الرواية العربيّة إلّا في أوائل هذا القرن وبداية في مصر بأوَّل رواية مصريّة لـ»محمد حسين هيكل»[1].

وتنقسم الروايّة بصفة عامّة إلى أنواع رئيسيّة هي: الرواية الاجتماعيّة، والرمزيّة، والتاريخيّة، والبوليسيّة، والنفسيّة والسياسيّة، ورواية الخيال العلمي.

ولا يعني هذا أنّه لا توجد أنواع أخرى ولكن هذه هي الأنواع الرئيسة للفنّ الروائيّ.

وتدرُس الرواية الاجتماعيّة أثر الوضع الاجتماعيّ والاقتصاديّ في زمان ومكان مُعيّنين في السّلوك الإنسانيّ، على حين أنّ الرواية الرمزيّة التي تتضمّن معاني وقِيَمًا أخلاقيّة وفكريّة، تستخدم الرمز لنقل معاني خفيّة.

أمّا الرواية التاريخيّة التي تتخذُ من التاريخ مادّة لها، فتهتمّ بتسجيل الأحداث الفعليّة للتاريخ، لذلك فإنّ الوقائع والشخصيّات والخلفيّة تُستمدّ كلُّها من الماضي، ويمتزج فيها التاريخ بالخيال[2].

مفهوم الرواية التاريخيّة، نوعًا أدبيًّا:

كيف يشتغل الحدث التاريخي ضمن العمل الروائي؟

يُمكن الإجابة عن السؤال بعرض مفهوم الرواية التاريخيّة...

عندما تلتقي الرواية بالتاريخ، تستمدُّ منه شرعيّتها، فتحاوره، وتستنطقه، والإنسان كائن شعوريّ يستنشدُ خيوط الجمال باستمرار في الحاضر ويتمسَّك بالماضي من خلال ارتباطه بالتاريخ الذي يمثّل هويّته.

ومع ازدياد الوعي بالحاضر، يزداد الاهتمام بالتاريخ، بوصفه أصل الحاضر بكلّ تفصيلاته الثقافيّة، والاجتماعيّة، والدينيّة، والفنيّة. إذ تسهم الرواية بوصفها إحدى أدوات تصوير التاريخ، الأكثر تفصيلًا وصدقًا، في استجلاء ما حدث في التاريخ. ولكن كيف يتأتّى لها أن تفعل ذلك؟ هل عليها أن تفهم التاريخ؟ من أين يبدأ؟ وكيف تصنعه؟

(1) – ينظر: كامل، وجدي وهبة: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص184.
(2) – ينظر: راغب، نبيل: ص183–182.

ومن يشارك في صنعه؟ والسؤال الأهم: ماذا يريد الروائيُّ بعمله التّاريخي، وما غايته فيه؟، وبتساؤل أدقّ: كيف يستطيع أن يخدم أهداف الحاضر عبر تمثّل الماضي؟، وأخيرًا: أيُراد بالرواية التاريخيّة أن تكون مَهربًا من الحاضر إلى الماضي أو أن تفهم الحاضر من خلال الماضي؟ هذه التساؤلات أو غيرها هي التي تدفع إلى دراسة الرواية التاريخيّة[1]. وقد أعلن «جورج لوكاش» أنّ الرواية التاريخيّة نشأت في مطلع القرن التاسع عشر، وذلك زمن انهيار «نابليون» تقريبًا، والواقع أنّه يُمكن العثور على روايات ذات موضوعات تاريخيّة في القرنَيْن السّابع عشر والثّامن عشر، ويستطيع الشّخص أن يعدّ الأعمال القروسطيّة التابعة للتاريخ الكلاسيكي مقدّمات للرواية التاريخيّة في الغرب[2].

لقد كانت الرواية التاريخيّة تمهيدًا إيديولوجيًّا للثورة الفرنسيّة، آنذاك، والتفسير التاريخي الرائع يعمل في معظم الأحيان لاكتشاف حقائق وعلاقات جديدة، وإظهار ضرورة تحويل المجتمع (غير العقلاني) في عهد الحكم الإقطاعي المطلق، من خلال دروس التاريخ التي تقدّم المبادئ لخلق مجتمع (عقلاني)، ودولة عقلانيّة.

وبناءً على ما سبق نجد أن الثورة الفرنسيّة، والحروب الثوريّة ونهوض نابليون وسقوطه، قد جعلت التاريخ، لأوّل مرّة، تجربة جماهيريّة، على نطاق أوروبي، فكانت مزيجًا من تجارب التاريخ إلى الجماهير الواسعة[3].

وتنسب بدايات الرواية التاريخيّة إلى الأمريكي «ستيفن كرين» صاحب رواية «شارة الشجاعة الحمراء»، إلا أنَّ ظهورها بشكلها المتكامل بدأ لدى بعض النقّاد الغربيّين على يد كتّاب من أمثال «والتر سكوت» (1771/1832) أهمّ كتّاب الرواية التاريخيّة، فقد سنّ أصولًا فنيّة ظلّت تقاليد متّبعة للرواية المتّكئة على التاريخ في مختلف الآداب الأوروبيّة، أساسها الصدق التاريخي وعمق الحبكات في تصوير وتجسيد عادات ذلك العصر وتقاليده، والوقوف على حقائقه التاريخيّة[4].

(1) – ينظر: لوكاش، جورج: الرواية التاريخية، ترجمة: د. صالح جواد كاظم، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1986م، مقدمة الكتاب ص87.
(2) – المرجع السابق، ص11.
(3) – ينظر: لوكاش، جورج: الرواية التاريخية، ص26–11.
(4) – ينظر: المرجع السابق، ص79–77.

وخطا «سكوت» بالتاريخ خطوات إلى الأمام، وإن كان قد حرّف بعض حقائقه، كما يذكر بعض النقّاد، إلّا أنّه أدخل العناصر الفنيّة والمنهج الأدبي في عرض أحداث التاريخ وأبطاله، ومختلف التغيرات التي تطرأ عليهم والتي تشمل العقائد والأفكار والأخلاق والعادات.

«وصوّر «سكوت» التاريخ وجسّده بطريقة فنيّة أشدّ تأثيرًا من كتب التاريخ الجافّة، حتى أنّ النقّاد اعتقدوا أنّ روايات سكوت أقرب للحقيقة التاريخيّة من كتب المؤرّخين»[1].

ثمّ بدأ الروائيّون في الغرب يتّجهون إلى هذا النوع الأدبي لما فيه من إحساس بالروح القوميّة والتذكير بالأمجاد العظيمة، ومنهم الكاتب الروسي «ليوتولستوي» (1828/1910) في روايته الشهيرة الحرب والسّلام[2].

وتشترك الحضارة العربيّة مع الحضارة الغربيّة بالنوع الروائيّ التاريخيّ، ومن يدرس الرواية التاريخيّة العربيّة، لا يظفر تمَامًا بالدوافع ذاتها في الرواية الغربيّة بدءًا من «سكوت» ومن تبعه من كُتّاب الغرب الذين كانت رواياتهم التاريخيّة متأثّرة تأثّرًا واضحًا بالإحساس القومي الذي ساد الفترة الرومانتيكيّة في الأدب الغربي، لذلك اهتمّوا بالجانب الخيالي أكثر من اهتمامهم بالصدق التاريخي، فقد كان التاريخ يمثّل الماضي بما يحمل من عواطف وأخيلة، وتقديم فترات تذخر بأمجاد أو بأفراد من نوع معيّن نتيجة معاناتهم لآثار عواطفهم الذاتيّة المتأجّجة[3]، وقد نال التاريخ اهتمامًا كبيرًا من قبل الروائيّين العرب، إذ أخذ تيّار الرواية التاريخيّة بداية التأثّر بالأدب الشعبي والمقامات والأساطير القديمة المتّصلة بالتاريخ، والرواية الغربيّة، واستلهموا من التاريخ المحلّي أحداثًا تمجّد الوطن، والإشادة بأبنائه، والحماسة للأحداث التي سجّلها[4]، لكن ذلك لا يسوّغ عدّ الأعمال القصصيّة القديمة المعتمدة على التاريخ جذورًا للرواية التاريخيّة، فالرغبة في سرد الماضي الموثّق رغبة تلازم البشريّة منذ الأزل.

فكانت بدايات ظهور الرواية التاريخيّة في الأدب العربي عن طريق الترجمة والاقتباس، إذ شهد النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر نشاطًا كبيرًا في تعريب الروايات الغربيّة

(1) – قاسم، عبده قاسم: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص189.
(2) – ينظر: لوكاش، جورج: الرواية التاريخية، ص48.
(3) – ينظر: بدر، عبد المحسن طه: تطور الرواية الحديثة في مصر (1870–1938)، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1976م، ص96.
(4) – ينظر: السعافين، إبراهيم: تطور الرواية الحديثة في بلاد الشام، ص203–202.

التي حلّت محلّ القصص الشعبيّة الخرافيّة التي كانت متداولة بين العامّة، كـ«قصّة الظاهر بيبرس»، و«الزير سالم»، و«أبي زيد الهلالي»، وغيرهم...

وتأسيسًا على ما تقدّم، فالتاريخ المقدّم في صورة حكائيّة ظهر في أشكال أدبيّة سرديّة متعدّدة ضاربة في القِدم من أيّام العرب بذكر الوقائع التي كانت تدور بين القبائل العربيّة في الجاهليّة وصدر الإسلام وما بعدها من العصور، ولكن رغم هذا التاريخ فإنَّ الرواية التاريخيّة لم تمثّل نموًّا للحكاية العربيّة بقدر ما تمثّلت نباتًا مأخوذًا من تربة غربيّة أُعيد غرسها في تربة عربيّة من بدايات القرن العشرين.

ونتيجة هذا التهافت على الروايات المعرّبة، برز «سليم البستاني» (1846-1884) مترجم «إلياذة هوميروس»، فكان من أوائل الكتّاب في الرواية التاريخيّة، وقد نشر إنتاجه الروائي في (مجلة الجنان) الصادرة في بيروت (1870م)، ومن رواياته التاريخيّة: «الهيام في فتوح الشام» (1874م)، و«زنّوبيا» (1871م)، وتعدّ هذه المجلّة من أوائل المجلّات التي اهتمّت بالنوع الروائي التاريخي، وكانت غاية «سليم البستاني» من أعماله الروائيّة التاريخيّة تعليميّة، بالإضافة إلى النصح والإرشاد[1]، وبالمقابل فقد افتقرت أعماله التاريخيّة للعناصر الفنيّة، فكانت أقرب إلى الأسلوب الصحفي منها إلى السّردي، مع تهويل الأحداث وتضخيمها، واتّصافها بالسطحيّة والتفكّك[2].

ثم ظهرت روايات «جورجي زيدان»، (1861-1914) وسط السرد التاريخي الذي شاع في ذاك العصر، والذي غذّى هذا النوع بسلسلة من الروايات التاريخيّة الإسلاميّة، حتى أن بعضهم يصفه برائد هذا الفن النثري في أدبنا العربي[3]، إذ شكّلت روايات زيدان التاريخيّة أصلًا تأسيسيًّا للرواية التاريخيّة التعليميّة في الأدب العربي، فمهّد الطريق لغيره، ووسم تلك المرحلة من ظهور الرواية التاريخيّة بسمات خاصّة، بعد أن صاغ التاريخ العربيّ الإسلاميّ، في سلسلة روائيّة، كانت تُعلّم التاريخ العربيّ والإسلاميّ للقُرّاء ومحدودي الثقافة، وقد بلغ عدد رواياته ثلاثًا وعشرين رواية وفقًا للإحصاء[4].

(1) – ينظر: إبراهيم، عبد الله: السردية العربية، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ط1، المؤسسة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان دار الفارس للنسر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2013م، ص242-239-237.

(2) – المرجع السابق، ص245.

(3) – القاعود، حلمي محمد: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث: دراسة تطبيقيّة، ط2، دار العلم والإيمان للنسر والتوزيع، كفر الشيخ،2010م، ص19.

(4) – ينظر: بدر، عبد المحسن طه: تطور الرواية الحديثة في مصر، ص99-96.

وقد كان «جرجي زيدان»، فيما يبدو يسعى لنشر الثقافة والمعرفة بين أفراد الأمّة عن طريق مجلّة «الهلال» التي أنشأها في عام (1891م)، ويتّضح ذلك من خلال تفسيره لسرّ كتابة الرواية التاريخيّة، حيث يرى في مطالعة التاريخ صعوبة تثقل على أفهام القُرّاء في بلادنا، وبخاصّة محدودي الثقافة، فكان اللّجوء إلى الرواية حيلة فنيّة بارعة لنشر التاريخ واستيعابه، فجمع بين التعليم والقصّة الغراميّة في الرواية التاريخيّة؛ لأنّه أراد من ذلك أن يعلّمهم التاريخ بالوسيلة التي تروقهم، وتسلّيهم، وتجذبهم إلى قراءة تاريخهم[1]، ولا ريب في أنّ زيدان أسهم بنصيب وافر في نشر الثقافة والمعرفة سواء عن طريق الرواية، أو غيرها من الطّرق، وإذا تعرّفنا إلى بعض ما أنتجه من كتب، فسوف نجده قد بذل جهدًا كبيرًا في هذا المجال.

وهذا ما يقودنا إلى أنّ الرواية التاريخيّة في تصوّر «جرجي زيدان»، كانت وسيلة لنقل المعلومات التاريخيّة التي ينبغي أن يتعرّف عليها جمهور القُرّاء؛ أيّ أنّ الغاية التي نشد إليها زيدان كانت غاية تعليميّة بحكم أن الرواية التاريخيّة قد صيغت في قالب مشوّق من الحكايات الغراميّة المثيرة التي تدفع القارئ لمتابعة الرواية والتعرّف على نهاية الأحداث ومصير الأشخاص معها، فكانت غايته معنيّة بتعليم التاريخ، ولكن الإحساس القومي لديه كان بعيدًا عن دوافعه وغاياته.

وقد كان الانتماء الديني والتأثّر بالمستشرقين له أثره في نظرة زيدان إلى التاريخ الإسلاميّ والعربيّ، هذه النظرة التي جعلته يعلّي من قدر الشعوب الأعجميّة، ويترك الفترات المشرقة في تاريخ المسلمين ويركّز كلّ جهده في التعبير عن الفترات الشائكة التي مرّت بهم، ويختارُ المواقف الحسّاسة التي تمثّل صراعًا بين مذهبَيْن سياسيَّيْن أو بين كتْلتَيْن تتصارعان على النّفوذ والسّيطرة، ويصوّر الخلفاء تصويرًا يحطُّ من أقدارهم[2].

أمّا باقي كُتّاب الرواية التاريخيّة العرب بعد «جرجي زيدان»، فقد دخلوا إلى التاريخ أو التراث ليعيشوا من خلاله واقعهم ومستقبلهم، بما في ذلك تلك الروايات التي كتبها أصحابها بقصد تعليم التاريخ، فقد كانوا يهدفون من ورائها الحكم على الحاضر وصنع المستقبل، ويتحركون من وعي دينيّ وقوميّ ووطنيّ، يدفعهم إلى احتضان الفترات

(1) – ينظر: المرجع السابق، ص98–97.

(2) – ينظر: القاعود، حلمي محمد: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، ص21–20.

التاريخيّة المشابهة للفترات المعاصرة التي يعيشونها واستدعاء العناصر التراثيّة التي توقد جمرة الأمل والتوثّب في نفوس المعاصرين[1]، فهم ورثة انكسارات واستعمارات واحتلالات، طوّعوا لغتهم، بالتعليم والقراءة والكتابة، والتفاعل مع حضارات كانت في الماضي، فجعلوها حيّة ناطقة.

فالحقيقة أنّ الماضي لا يُعيد نفسه تمامًا، لكن التاريخ والثقافة العربيّة باقية، لأنّها نواة المدار الحضاريّ العربيّ، وهذه الثقافة تعيش أكثر بكثير من منتجيها وحتى أكثر من مستهلكيها.

بيد أنّه في كلّ الأحوال، فقد أفاد الأدب العربي الحديث فائدة كبرى، بتحويل انتباه كتّاب الرواية، والمسرحية، إلى أثرٍ معيّن لا ينضب وهو التاريخ أو التراث، وجدوا فيه مادّة غزيرة وسخيّة، ووجدوا أنّ تاريخ أمّتنا العربيّة مليئًا بالروائع الأدبيّة والفنيّة والثقافيّة، يستطيعون من خلالها التعبير عن همومهم وأشواقهم الحاضرة، وساد في تلك المرحلة زيادة الاهتمام بتأليف الروايات التاريخيّة، إذ كانت غايتهم تقديم نماذج أسلوبيّة وتعبيريّة.

ومن هؤلاء الكتّاب: «معروف الأرناؤوط»، (1892–1948)، الذي كتب عدّة روايات تاريخيّة تعليميّة، مثل: «سيد قريش»، و«عمر بن الخطاب»، و«طارق بن زياد»، فقد اهتمّ الأرناؤوط بأكثر فترات التاريخ العربيّ والإسلاميّ إشراقًا، بهدف بعث القوميّة العربيّة، فجاءت رواياته التاريخيّة فيّاضة بعاطفة قوميّة[2].

وتبعه في ذلك النوع «علي الجارم»، (1881–1949)، الذي اهتمَّ بالرواية التاريخيّة من منظور إسلامي صاف[3]، و«محمد فريد أبو حديد»، (1893–1966) الذي قدّم عددًا من الروايات مثل: «الملك الضليل»، و«المهلهل سيد ربيعة»، و«زنوبيا ملكة تدمر»، والذي يعدّ في طليعة كتاب الرواية التاريخيّة على المستوى الفنّي، والمستوى الكمّي[4]، و«محمد سعيد العريان»، (1905–1968) الذي اقتصر على تاريخ مصر الإسلامي، وخاصّة في عهد الأيّوبيّين والمماليك في رواياته «قطر الندى»، و«شجرة الدر»، و«على باب زويلة»، وربط التاريخ بالواقع الذي يعيشه فكانت رواياته تتحدّث

(1) – القاعود، حلمي محمد: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، ص20.
(2) – ينظر: السعافين، إبراهيم: تطور الرواية في بلاد الشام، ص202.
(3) – القاعود، حلمي محمد: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث، ص43.
(4) – المرجع نفسه، ص127.

عن إحساس بمشكلة قومه أو وطنه التي تشغل الناس في زمانهم وتؤرقهم، حيث الاستعمار يحتلّ البلاد، ويطارد العباد والسّلطة ظالمة قاهرة، والشّعب مشغول بهمومه اليوميّة[1]. و«علي أحمد باكثير»، (1910–1965)، الذي اتّجه إلى التاريخ الإسلاميّ في أوطانه المتعدّدة فألّف «وإسلاماه»، و«الثائر الأحمر»، و«سيرة شجاع»، وانطلق من المواقف التي تحتوي على صراعات ليدير حركتها بمهارة فنيّة فائقة، والذي اتّجه إلى التاريخ يغترف منه الحوادث والظروف المشابهة لما تمرّ به الأمّة العربيّة الإسلاميّة في العصر الحديث.

وبعد ذلك ظهرت روايات «نجيب محفوظ» التّاريخيّة (1911–2006) التي جسّدت لمحات من التّاريخ الفرعونيّ في ثلاثة من أعماله: «عبث الأقدار»، (1939)، و«رادوبيس»، (1943)، و«كفاح طيبة»، (1944)، وقد شكّلت هذه الروايات تقدّمًا ملحوظًا في نهضة الرّواية التّاريخيّة[2].

ولقد حرص الأدباء والكتّاب المعاصرون على كتابة التاريخ وارتباطهم به، واجتهدوا الإفادة منه في تجاربهم الروائيّة، انطلاقًا من عدّة عوامل منها:

العوامل الفنيّة: وتتجلّى هذه العوامل في ثراء مجريات التاريخ بالأحداث والقصص والعبر، وحاجة الأديب الملحّة في إضفاء جوّ من الموضوعيّة الدراميّة على إنتاجه.

العوامل الثقافيّة: وتمثّلت ب«الاجتهاد في التعبير بأحداث الماضي لا الحديث عنها»، وهي آليّة جديدة في التعامل.

العوامل السياسيّة: وهذه انطلاقًا ممّا يستشعره الأديب من الخطر الذي يهدّد أمّته في جميع مقوّماتها، لذلك بحث في الجذور لإحياء الروح، ونشر الوعي.

العوامل الاجتماعيّة: نظرًا لتفشّي الجهل والتردّي الاجتماعي، إذ يلجأ الأديب إلى الإشارة بالرمز والأساطير وقصص الماضي.

العوامل السيكولوجيّة: وهي مسألة تتعلّق بإحساس الأديب بالاغتراب والضياع، ممّا يجعله في حالة انفصال واتصال؛ أيّ انفصال عن الواقع، واتصال بالماضي؛ ذلك لأنّه

(1) – المرجع نفسه، ص169.

(2) – الشمالي، نضال: الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربيّة، (د،ط)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2006م، ص121.

يرى في الماضي الأنيس والصاحب في حالة اغترابه.

الواقع ← انفصال ← الاغتراب والضياع والتشظّي.

الماضي ← اتصال ← الانتماء والقبول.

فالإصرار على العودة إلى الماضي أو الاندفاع نحوه، له ما يبرّر دائمًا لكن يجب أن تتمّ هذه العودة أو هذه الاندفاعيّة ضمن موازنة دقيقة تكفل للخطابين الروائيّ والتاريخيّ أن يتناسقا دون أن يتعارضا، ويتمّ هذا التناسق أوّلًا: بحقيقة وصدق الحدث التاريخي (الحكاية) من مرجعيّة نفعيّة، وثانيًا: تخييلي يقترن بالحدث الخطابي (الروائي) من مرجعيّة فنيّة جماليّة.

وأخيرًا، يظلُّ التاريخ عبر العصور ملهم الثقافات، وخزّانًا أثيرًا يستقي منه الروائيّون أعمالهم، ينهلون من حوادث شكّلت منعطفات هامّة في مرحلة من مراحله أو أكثر، ينطلق من خلالها إلى عوالمهم الروائيّة الشّاسعة، يبنون عالمًا متخّيلًا على أساس نقاط ثابتة بحيث يعيدون كتابتها بطرائقهم الخاصّة وأساليبهم المبتكرة حتّى تكاد تنافس التّاريخ المفتر، أو المدوّن، وتتقدّم باعتبارها تاريخًا لا تخييلًا.

ومن هذه النقاط التي تكمن فيها تجارب الكتّاب في الرواية التاريخيّة:

– يمكن أن تؤثّر الرواية التاريخيّة على الهويّة الثقافيّة للشعوب والمجتمعات عن طريق اللّغة والأدب والتقاليد الثقافيّة والفكريّة للأفراد والمجتمعات، وكذلك فهم العادات والتقاليد والقيم الثقافيّة للمجتمع الذي تدور فيه أحداث الرواية.

– يمكن أن تؤثّر الرواية التاريخيّة على السياسة والتغييرات السياسيّة السّابقة من الحروب وغيرها، فتؤثّر بصفة أو أخرى على النظم السياسيّة في الحاضر.

– يمكن للرواية التاريخيّة أنْ تؤثّر على حياتنا اليوميّة، بإسقاط صراعات الماضي على المجتمع الحاضر.

– يمكن أن يكون لوقع التاريخ في الروايات تأثيرًا عميقًا على وعي المتلقّي، فالروايات تساعد على فهم الماضي والحاضر بشكل أفضل، كما يمكنها أن تلهمنا بتغيير المستقبل.

قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم، عبد الله: السردية العربية، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ط1، المؤسسة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان دار الفارس للنسر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2013م، ص242-239-237.

2- بدر، عبد المحسن طه: تطور الرواية الحديثة في مصر، ص99-96.

3- حسين، الصديق: مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيّة، 1425هـ-2004م، ص28.

4- راغب، نبيل: فنون الأدب العالمي، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان، الجيزة، مصر، 1996م، ص183-171.

5- السعافين، إبراهيم: تطور الرواية الحديثة في بلاد الشام، ص203-202.

6- الشمالي، نضال: الرواية والتاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربيّة، (د،ط)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2006م، ص121.

7- قاسم، عبده قاسم: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص189.

8- القاعود، حلمي محمد: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث: دراسة تطبيقيّة، ط2، دار العلم والإيمان للنسر والتوزيع، كفر الشيخ،2010م، ص19.

9- كامل، وجدي وهبة: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص184.

10- لوكاش، جورج: الرواية التاريخية، ترجمة: د. صالح جواد كاظم، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1986م، مقدمة الكتاب ص87.

11- ويليك، رينيه، وآوستن وآرن: نظرية الأدب، تعريب: عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض السعودية، 1412هـ-1992م، ص315.

12- ويليك، رينيه: مفاهيم نقديّة، ترجمة: محمد عصفور، ص311.